

المعلم... صناعة الإنسان

ناقدة للخطاب الثقافي المعاصر، وباحثة ومستشارة في السياسات الأسرية والتنمية الأسرية.

من يصنع مستقبل البشرية؟

قد نطن أن الإجابة هي العالم، أو القائد، أو المهندس، أو صاحب القرار. لكن وراء هؤلاء جميعًا يقف إنسان آخر: المعلم.

فكل طبيب كان يومًا طالبًا، وكل عالم بدأ بسؤال، وكل صاحب رسالة مرّ ذات يوم أمام معلم. ولهذا فالمعلم لا يصنع أفرادًا لزمانهم فحسب، بل يشارك في صناعة الإنسان الذي سيمنع الزمن القادم.

لكن التعليم، في معناه العميق، ليس نقلًا للمعلومات. فالمعلومة قد تملأ الذاكرة، لكنها لا تضمن الحكمة. وقد يعرف الإنسان كثيرًا ثم يضل الطريق. لذلك فإن السؤال الأهم ليس: ماذا يعرف الطالب؟ بل: ماذا أصبح بما عرف؟

هنا تبدأ رسالة المعلم.

من المعرفة إلى الحكمة

المعلم الحقيقي لا يكتفي بتقديم الإجابة، بل يعلم الإنسان كيف يسأل، وكيف يفكر، وكيف يميز بين ما يستطيع فعله وما ينبغي له أن يفعله.

فالمعرفة تمنح القدرة، أما التربية فتعطيها اتجاهًا.

ولهذا فإن أخطر ما يمكن أن يفعله التعليم أن يصنع عقلاً يحفظ ولا يفكر، أو إنسانًا ينجح دون أن يعرف لماذا يريد النجاح. وأجمل ما يفعله أن يحرر العقل من الخوف والتبعية، ويمنح الإنسان القدرة على رؤية العالم بعين ناقدة، وضمير حي، ومسؤولية أخلاقية.

إن المعلم العظيم لا يصنع أتباعًا له، بل يصنع عقولًا تستطيع أن تقف على قدميها.

محمد - صل الله عليه وآله وصحبه - المعلم الذي بنى الإنسان

وحين نتأمل النموذج النبوي، ندرك أن التعليم لم يكن منفصلًا عن بناء الإنسان.

يقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رُسُلًا مِنْهُمْ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
وَيُزَكِّيَهُمْ وَيُطَهِّرَهُمُ الْأَكْثَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

[الجمعة: 2]

تأمل اجتماع التعليم والتزكية والحكمة؛ فالمقصود لم يكن أن يمتلئ الإنسان بالمعلومات، بل أن تتغير رؤيته لنفسه وللحياة وللآخر.

كان التعليم النبوي يربط المعرفة بالسلوك، والعقل بالقلب، والحق بالرحمة.

ولهذا لم يكن النبي- صل الله عليه وآله وصحبه - يتعامل مع الناس بوصفهم أخطاءً ينبغي تصحيحها، بل بشرًا يمكن أن يتغيروا وينهضوا. كان يصحح دون إذلال، ويربي دون تحطيم، ويفتح للإنسان باب الرجوع بعد الخطأ.

وهذه من أعمق قواعد التربية:

أن تجعل الإنسان يكره الخطأ دون أن تجعله يكره نفسه.

أن ترى الإنسان قبل أن ترى ضعفه

من أعظم ما يمكن أن يقدمه المعلم لطالب أن يراه كما يمكن أن يكون، لا كما هو الآن.

قد يكون الطالب ضعيفًا أو مترددًا أو كثير الأخطاء، لكن وراء ذلك إمكان لم يكتشف بعد. والمعلم المبدع لا يسأل فقط: ما مستوى هذا الطالب؟ بل يسأل: إلى أي مستوى يمكن أن يصل؟

وكلمة واحدة من معلم قد تغير علاقة الإنسان بنفسه:

"أنت تستطيع."

قد تبدو جملة عابرة، لكنها أحيانًا تفتح عمرًا كاملاً من المحاولة.

فالمعلم لا يمنح المعرفة فقط؛ قد يمنح الثقة التي تجعل المعرفة ممكنة.

أثر لا ينتهي بانتهاء الدرس

أعظم أثر للمعلم قد لا يظهر في درجات الطالب ولا في شهادة يحملها، بل في الطريقة التي يعيش بها بعد سنوات.

قد ينسى الطالب درسًا كاملاً، لكنه لا ينسى كيف جعله معلمه يشعر تجاه نفسه. وقد لا يدرك لحظة سماع كلمة ما قيمتها، ثم يجدها بعد سنوات ما تزال تسنده في موقف صعب.

وهنا تكمن خصوصية هذه الرسالة: المعلم يزرع أشياء لا يعرف أين ستنبث.

قد تتحول كلمته إلى طبيب ينقذ حياة، أو باحث يكتشف، أو أب يربي أبناءه بوعي، أو إنسان يرفض ظلمًا لأنه تعلم يومًا معنى الكرامة.

لذلك فإن أثر المعلم لا يقاس بعدد طلابه، بل بما تركه فيهم من وعي وقيم وثقة وقدرة على أن يكونوا نافعين.

في عصر الذكاء الاصطناعي

وفي زمن يستطيع فيه الذكاء الاصطناعي أن يجيب عن آلاف الأسئلة في لحظات، لن تتراجع قيمة المعلم؛ بل

تتغير طبيعة أهميته .

فالألة تستطيع أن تجيب عن سؤال، لكنها لا تتحمل مسؤولية اختيار السؤال.

وتستطيع أن تنتج معرفة، لكنها لا تملك وحدها معيار الحكمة.

وقد تجيب عن: كيف أفعل؟

لكن السؤال الإنساني والأخلاقي يبقى:

هل ينبغي أن أفعل؟ ولماذا؟

وهنا تظهر رسالة المعلم من جديد: أن يحافظ على إنسانية الإنسان وسط عالم تزداد فيه قوة الأدوات.

المعلم... صناعة المستقبل من الداخل

ليست أعظم وظيفة للمعلم أن يملأ العقول، بل أن يفتح فيها النوافذ؛ أن ينقل الإنسان من الحفظ إلى الفهم، ومن المعرفة إلى الحكمة، ومن الاعتماد إلى الاستقلال، ومن النجاح الشخصي إلى الإحساس بالمسؤولية.

ولهذا يبقى النموذج النبوي في التعليم ذا دلالة عميقة؛ لأن النبي محمدًا - صلّى الله عليه وآله وصحبه - لم يغيّر ما يعرفه الناس فقط، بل غيّر ما كانوا يعتقدون أنهم قادرون على أن يكونوه.

فبنى إنسانًا يعرف ربه، ويملك وعيه، ويحفظ كرامة غيره، ويضبط قوته، ويحمل مسؤوليتها؛ فتحوّلت المعرفة إلى عمل، والإيمان إلى أخلاق، والفرد إلى إنسان يحمل رسالة.

وهنا تكمن عظمة المعلم.

فبعض الناس يتركون وراءهم أموًّا لا، وبعضهم مناصب، وبعضهم كتبًا.

أما المعلم الحقيقي، فيترك وراءه إنسانًا أفضل.

وربما كان هذا أعمق ما يمكن لإنسان أن يتركه في العالم:

أن يمر في حياة إنسان، فيجعله أكثر وعيًا، وأكثر رحمة، وأكثر شجاعة، ثم يمضي... بينما يستمر أثره في حياة لم يعد يراها.